الفصل الثانى

فى رحاب العلم

- السفر والترحال فى طلب العلم
- شيوخه وأئمته
- مع الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة وناصر القرآن
- منهج حياة وصفات شخصية

السفر والترحال فى طلب العلم

حفظ الشافعى القرآن بسرعة وهو صغير، وأخذ يحفظ الأحاديث ويكتبها، وعُنى بتعلم قواعد العربية وكلماتها، ورحل فى سبيل ذلك إلى البادية حيث أقام فى قبيلة هذيل نحو عشر سنين، ليتعلم من كلامها ويأخذ طباعها، وكانت هذيل أفصح العرب، فحفظ أشعارها وأخبارها حتى ذكر الأصمعى: إنه صحح أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له «محمد بن إدريس» يعنى الشافعى.

وقال الشافعى رحمه الله: كانت همتى فى شيئين: فى الرمى، والعلم، فصرت فى الرمى بحيث أصيب من عشرةٍ عشرة، وسكتَ عن العلم، فقال بعض الحاضرين: أنت واللهِ فى العلم أكثر منك فى الرمى.

وقال رحمه الله: أقمت فى بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها وحفظت القرآن فما علمتُ أنه مرَّ بى حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد، ما خلا حرفين: دسّاها، والآخر نسيه الراوى عنه.

وانصرف فى تعلم الفقه إلى مالك بن أنس ومشايخ المدينة وشخص إلى العراق فانقطع إلى محمد بن الحسن وحمل منه ثم رجع إلى المدينة بعد سنين وذهب به «مصعب بن عبد الله بن الزبير» إلى مكة وحدّث ابن داود عنه فأمر له بعشرة آلاف درهم.

والثابت أن الشافعى طلب العلم فى مكة وبرع فيه، ولما أذن له مسلم ابن خالد الزنجى فى الإفتاء لم يقنع الشافعى بما حصله بل واصل طلب العلم وهاجر إلى المدينة، وتلقى عن الإمام مالك بعد أن استعد للقائه بأن قرأ «الموطأ» وحفظ أكثره وأخذ كتاب توصية للإمام من والى مكة،

ولما التقى الإمام مالك بالشافعى قال له فيما قال: «إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية».

وظل مع الإمام مالك حتى توفى مالك سنة تسع وسبعين ومائة، وكان الشافعى خلال ذلك يزور أمه بمكة أو يقوم برحلات هنا وهناك.

بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله اتجهت نفسه إلى البحث عن عمل ليتكسب منه ما يدفع حاجته، وتصادف أن جاء والى اليمن إلى الحجاز فحادثه بعض القرشيين فى أن يولى الشافعى عملاً فى اليمن فقبل، ورهن الشافعى دارا ليجهز نفسه للسفر، وعمل رحمه الله بنجران فأقام العدل بها.

يقول رحمه الله: وُليت نجران وبها الحارث بن عبد المدان وموالى ثقيف وكان الوالى إذا أتاهم صانعوه فأرادونى على نحو ذلك فلم يجدوا عندى.

أغلق باب المصانعة والملق لكيلا يصل إلى نفسه أحد، وبهذا حصّن نفسه من كل فساد وشر وظلم فصار كله للعدل.

وقالوا: جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر بها.

شيوخه وأئمته

تكونت ثقافة الشافعى من عدة روافد ونهضت على عدة دعائم فهناك: شيوخه وأساتذته، وهناك مطالعاته وقراءاته، وهناك رحلاته إلى اليمن والكوفة والبصرة ومكة وبغداد ومصر، وهناك انتفاعه بالمناظرات والمساجلات والمجادلات التى دارت فى عصره بين علماء الكلام وعلماء الفلسفة وعلماء الفقه وعلماء الحديث وغيرهم، ثم هناك أخيرا

تفكير الشافعى وتدبره، فكل هذه المصادر كونت له تلك الثقافة الواسعة.

والشـافعى نفسه يشـعرنا بأنه يؤمن بأن تعدد الروافد لتكوين الثقافة الواسـعة أمـر ضرورى لابد منـه ولذلك نجده يقول: «مـن تعلم القرآن عظمـت قيمته، ومن كتب الحديث قويـت حجته، ومن نظر فى الفقه نبـل قدره، ومن نظر فى اللغة رقَّ طبعه، ومن نظر فى الحسـاب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

بدأ الشـافعى بشيخه مسلم بن خالد الزنجى وغيره من أئمة مكة، ثم رحل وسـنه ثلاث عشرة سـنة إلى المدينة ولازم فيها الإمام مالكا حتى مات ثم كان له شيوخه فى الحواضر والعواصم الكبرى التى رحل إليها.

فمن شيوخ الشافعى فى مكة:

مسـلم بن خالد الزنجى وسـفيان بن عيينة وسـعيد بن مسلم القداح وداود ابن عبد الرحمن العطار وعبد الحميد بن عبد العزيز بن أبى دؤاد.

ومن شـيوخه فى المدينة: مالك بن أنس وإبراهيم بن سعد الأنصارى وعبـد العزيز بن محمد الداروردى وإبراهيم بن يحيى الأسـلمى ومحمد ابن سعيد بن أبى فديك وعبد الله بن نافع الصائغ.

ومن شـيوخه فى العراق محمد بن الحسن ووكيع بن الجراح الكوفى وأبـو أسـامة حماد بن أسـامة الكوفـى وإسماعيل بن عطيـة البصرى وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصرى.

ونلاحظ أن شيوخ الشـافعى أنماط وألوان؛ فمنهم من عنى بالحديث ومنهـم من عنـى بالرأى ومنهم المعتزلى ومنهم الشـيعى ومنهم أصحاب مذهب غير مذهبه.. إلخ، وقد أفاده هذا فى توسـيع أفقه وتكثير مادته وتضخيم ثقافته.

وقد استفاد الشافعي كثيرا من كتب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وتلميذه، ومن دراسته للفقه العراقي ومناظرته لفقهائه وتعدد مصادر التلقي عنده فقد هيأ له الجمع بين فقه النقل وفقه العقل، وساعده ذلك فأصّل الأصول وقعّد القواعد فاشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره وصار منه ما صار.

سفره إلى مصر

غادر الإمام الشافعي بغداد بعد أن نشر بها مذهبه وترك بها عددا كبيرا من أصحابه تولوا بعده نشر مذهبه، وقد وصل إلى مصر سنة ١٩٩ هـ، ووجد بغيته فيها لأن بها تلاميذ شيخه مالك رحمه الله كما أن الليث بن سعد كان مقيما بها، ثم إنه وجد للعرب سلطانا فيها حيث إن واليها قرشي عباسي. وقال عند رحيله إليها:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامة[1] والقفر[2]
فوالله ما أدري أللفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟!

قال الشيخ أبو زُهرة رحمه الله: لقد أجاب القدر عن سؤاله فساقه إليهما معا، إذ فرض ذلك الوالي العربي عطاء له من سهم ذوى القربى من رسول الله ﷺ، ثم ناله الفوز بنشر آرائه وعلمه وفقهه، ثم أصابه سهم الموت فكان مسوقا إلى قبره بمصر حيث مات بها سنة ٢٠٤ هـ.

---

(١) المهامة: المفازة البعيدة.

(٢) القفر: الصحراء التي لا نبات فيها ولا ماء.

دراساته الخاصة وتجاربه

اتصل الشافعى بكثير من العلماء وضرب فى طول البلاد وعرضها ولذا كان يقول:

سأضرب فى طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أموت غريبا
فإن تلفت نفسي فلله درها وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ولا شك أن الأسفار- فوق ما تعطيه للفقيه من مادة وخبرة- بطبيعتها تفتق الذهن وتنمى المدارك وتعطى الفكر مادة من الصور توسع تصوره وتفتح له مسالك من الفروض العقلية والمسائل الواقعية، وهى لهذا لازمة للمفكر الذى يريد أن يضع قضايا كلية للحوادث الجزئية، ولذلك كان أكثر الفلاسفة الذين أضافوا إلى آثار العقل الإنسانى آثارا يضربون فى الأرض ويسعون فى مناكبها، وصدق فى الشافعى قول الإمام أحمد ابن حنبل: الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء: فى اللغة، واختلاف الناس، والمعانى، والفقه.

إن رحلات الشافعى العلمية جعلته لا يقتصر فى دراسته على فقهاء الجماعة الذين دخلوا فى طاعة الخلفاء بل كان يدرس آراء الشيعة وغيرهم ولذا قال: «من أراد الفقه فهو عيال على أبى حنيفة، ومن أراد السِير فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان» وهذا الأخير شيعى زيدى.

ويروى أن الشافعى درس كل ما يمكن أن يفيد الفقيه الإسلامى الذى

يريد أن يستنبط مذهباً فقهياً ينبع من الكتاب والسنة والحمل عليهما، فدرس اللغة والقرآن والحديث وآراء من سبقوه وخلافهم ووفاقهم غير مقيد بنِحلة أو مذهب أو طائفة، ورحل كثيرا مستفيدا علما كثيرا وتجارب كبيرة مختبرا لطبائع الناس وأحوالهم وشئون اجتماعهم، بل يقال إنه تعلم اليونانية لأنه اعترف أمام الرشيد أنه درس ما قاله أرسطوطاليس وبقراط وجالينوس وغيرهم فى علم الطب وما نقله أطباء العرب وقننته فلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس[1].

ولا يزيدنا علما بمذهب الشافعى كونه كان يعلم اليونانية ولا يغض من استنباطه كونه كان يعلمها[2].

عصر الشافعى

عصر الشافعى عصر التقت فيه الحضارات القديمة، حضارات الهند وفارس واليونان فى صقع واحد تحت ظل هذا الدين الجديد، وتم المزج بين تلك الحضارات متباينة الأصول فالتقت فى ذلك الجيل متآلفة النغمات..

وهو عصر الخِصب العقلى المستقل المنتج فهؤلاء المحدثون يشمرون عن ساعد الجد ليتميز الصحيح فى المروى عن رسول الله ﷺ ويضعون ضوابط ومقاييس يتعرفون بها إلى الثقات من الرجال، ويخرجون بها الشاذ من المرويات، ويبينون ما يصح أن يكون حجة فى الدين ومالا يصح، ثم يدونون ما صح عندهم ورجح صدقه على مقتضى مقاييسهم.

---

(١) رفض المحققون هذه القصة.

(٢) الشافعى: حياته وعصره، آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة- ٤٣- ٤٨ - بتصرف- دار الفكر العربى.

وهـؤلاء العلمـاء من فقهاء ومحدثـين ينتقلون فى البـلاد وينتجعون الأقاصـى والأدانى طلبا للحديث والفقه والقرآن، فيلتقى بهم الشـافعى فى البيت الحرام فى نشأته الأولى.

ثم هذا الفقه يجمع فى الكتب ويدون فيها بعد أن دُونت السُنة فيرى الفقيه آراء غيره مدونة مبسوطة فيقرؤها ويدرسها وينقدها ويقبل ما يراه أقرب إلى الكتاب والسنة.

ثم هو عصر الجدال فى المسائل الكلية والفروع الجزئية حيث قوة الألفاظ فى الدلالة وتفهم النصوص الفقهية واستخراج الأحكام من ثنايا العبارات.

جاء الشـافعى فى ذلك العصر، وفى وسط ذلك اللجب العلمى القوى عاش وخاض غمـرات المناظرات وأخذ من تلك الثروة العلمية العظيمة، وبقوة مواهبه ودراساته وحسن اتجاهاته وفى ظل عصره خرج على الناس بآرائه ومذهبه[1].

مع الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة وناصر القرآن

من أبرز تلاميذ الشافعى أحمد بن حنبل الذى سئل عن الشافعى فقال: «لقـد منّ الله بـه علينا، لقد كنا تعلمنا كلام القـوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا الشـافعى، فلما سمعنا كلامه علمنـا أنه أعلم من غيره، ولقد جالسناه الأيام والليالى فما رأينا منه إلا كل خير.. رحمة الله عليه».

وقال الزعفرانى: «ما ذهبت إلى الشافعى مجلسا قط إلا وجدت أحمد ابن حنبل فيه».

وكان ابن حنبل يجل مقام شـيخه الشافعى ويحتفل به، ولقد ركب

(١) المرجع السابق نفسه ص ٨٧– ٨٩ بتصرف.

الشـــافعى يوما حماره فمشـــى ابن حنبل إلى جانبه وهو يذاكره ولما علم يحيى بن معين بذلك عاتب ابن حنبل على ما فعل فقال له ابن حنبل: «لو كنت فى الجانب الآخر من الحمار لكان خيرا لك»!

وقال ابن حنبل أيضا: «لما قدم علينا الشـــافعى من صنعاء ســـرنا على المحجة البيضاء».

وكان الشافعى يلقى درسه بمكة فى المسجد الحرام حيث استمع إليه الكثيرون فى موســـم الحج وغيره وحيث التقى به الإمام أحمد بن حنبل وأخذ عنه، ويدل على هذا أن إســـحاق بن راهويه كان عند ســـفيان بن عيينـــة يكتب منه أحاديـــث عمرو بن دينار فجاءه أحمد بن حنبل فقال له: قم يا أبا يعقوب حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله.

فقام معه إســـحاق وأتيا فناء زمزم فـــإذا هناك رجل عليه ثياب بيض تعلو وجهه السُمرة حسن السمت حسن العقل وهو الشافعى الذى أجلس إســـحاق بجانبه ورحب به بعد أن عرّفه به أحمد بن حنبل فانفجر منه لإسحاق علم أعجب إسحاق حفظه، ثم قال ابن حنبل لإسحاق: «يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل فإنه ما رأت عيناى مثله!».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبى: أى رجل كان الشافعى فإنى سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال يا بنى: كان الشـــافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عنهما عِوض؟!

منهج حياة وصفات شخصية

انصـــرف همه إلى العلم منـــذ نعومة أظفاره، وعلى غير انتظار انصرف همه إلى الفقه لفهم الأحكام الشرعية من مصادرها بعد أن كان منصرفا إلى الشعر والأدب وأيام العرب.

وقد بدأت روافد ثقافته الدينية- بعد القرآن والسنة- بمجالسته لمسلم ابن خالد الزنجى «مفتى مكة» وكثير من علمائها فأخذ عنهم حتى صار عالما وأذِنَ له مسلم بالإفتاء.

وعكف الإمام الشافعى على الموطأ- كما سبق- ثم عكف على أستاذه الإمـام مالك بن أنس الذى نصحه بنصيحة غاليـة بقوله «إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية» وبعد ذلك قام برحلات إلى الكوفـة والبصـرة وبغداد ومصر ولم يدع عالما إلا اسـتمع إليه وأخذ عنه وصار له تلاميذ فى كل بلد حل به أو أقام فيه.

ثم مارس التدريس فى المسجد الحرام تسع سنوات، وفى بغداد سطع نجمـه فأقبل عليـه العلماء والمحدِّثون وأهل الـرأى وهناك ألف كتاب «الرسـالة» ووضع فيه أسـاس علم أصول الفقه، وقد اسـتقى مذهبه من القرآن أولا ثم من السُـنة ولذلك يسـمونه «ناصر الحديث» كما يسـمون أصحابه «أتباع الحديث» كما كان يأخذ بالإجماع بعد القرآن والحديث، وقد ألف كتباً كثيرة وصلت إلى ١٣ كتابا وأشـهرها على الإطلاق كتاب «الأم» الذى جمع فيه مذهبه الذى وضعه فى مصر.

أما عن صفاته فقد جمع محاسـن الصفات إذ جمع شـرف النسـب الطاهر والعنصر الباهر واجتمع هو ورسول الله ﷺ فى النسب وذلك غاية الشرف ونهاية الحسب.

وله شرف المولد والمنشأ فإنه وُلد بالأرض المقدسة ونشأ بمكة المكرمة. ويتميـز بقوة الإدراك العلمى حيث كان صاحـب ذاكرة حافظة، عميق الفكـرة بعيـد الغوص لا يكتفى مـن الأمور بدراسـة ظاهرها بل يذهب إلى أعمق أغوارها.

ويتصف بقوة البيان فقد أوتى مع فصاحة اللسان وبلاغة البيان صوتا عميق التأثير يعبر بنبراته كما يوضح بعباراته قالوا فيه: إنه خطيب العلماء.

تمكن من أنواع العلوم حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون وقالوا فيه: إنه لو شاء أن يقيم دليلا على هذه السارية التى من حجارة أنها من خشب لفعل ذلك.

جاد الله عليه بعلم العربية وعلم الكتاب ففقه معانيه، وطلب أسراره ومراميه، وقد ألقى شيئا من ذلك فى دروسه. قالوا فيه: إذا أخذ فى التفسير كأنه شاهد التنزيل.

أوتى علم الحديث وضبط قواعد السُنة وفهم مراميها والاستشهاد بها ومعرفة الناسخ والمنسوخ منها.

أوتى فقه الرأى والقياس ووضع ضوابط القياس والموازين لمعرفة صحيحه وسقيمه.

وكان مجلسه للعلم جامعا للنظر فى عدد من العلوم.

تميز بنفاذ البصيرة وقوة الفراسة فى معرفة أحوال الرجال وما تطيقه نفوسهم ولخبرته بنفوس الناس لا يعطى سامعيه من العلم إلا بمقدار ما يألفون، ويجتهد فى ألا يعرفهم من نفسه إلا بما يطيقون.

كانت نفسه صافية من أدران الدنيا وشوائبها، مخلصا فى طلب الحق والمعرفة، صادق النظر فى الاتجاه إلى الحقائق.

مكثرا لتلاوة القرآن ولا سيما فى شهر رمضان، كان يختم فى كل شهر ثلاثين ختمة وفى رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ فى الصلاة، وكان كثير الصلاة بالليل.. قال ابن كثير: كان قد قسّم الليل ثلاثة أجزاء

فثلثه الأول للاشـتغال بالعلم، والثانى للصلاة، والثالث ينامه ليقوم إلى صلاة الفجر نشيطا.

كان– رحمه الله – متواضعا لا يحب الشهرة ولا يحب الثناء. يقول رحمه الله: «وددت أن كل علم أعلمه تعلمه الناس أؤجر عليه ولا يحمدوننى».

كان متقللا من الطعام والشـراب لعلمه أن الشـبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة.

كان أسخى الناس بما يجد، وكان يمر بأصحابه وتلاميذه فلا يتغدى إلا معهم.

يقـول عن نفسـه رحمه الله: ما حلفت بالله قـط لا صادقا ولا كاذبا وما تركت غُسل الجمعة قط لا صيفا ولا شتاء وما كذبت قط.

كان شـغوفا بدراسـة المجتمع من حوله دائم السعى لفهم شخصيات المجتمع ونماذجه.

ومـن أهم مـا يدل على فطنته: قوله بأثـر زواج الأقارب على ضعف النسل.

وقوله: احذر الأعور والأحول والأعرج والأحدب والأشـقر والكوسـج «لم تنبت له لحية» وكل من به عاهة فى بدنه وكل ناقص الخلق، فإنه صاحب التواء ومعاملته عَسِرة.

كان واثقـا بالله تعالى، مقتصدا فى ملبسـه، متصدقا فى كل يوم ليلا ونهارا، ولا سيما فى رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء.

كان الشافعى طويلا ممتد الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق طويل عظـام اليدين والرجلين أى عظيم الفخذ والسـاق والعضد خفيف شـعر الخدين، يخضب لحيته بالحناء، حسن الصوت والسمة، عظيم العقل،

جميـــل الوجـــه، مهيبا، فصيحا، مـــن آدب الناس لســـانا، أبلج ليس حاجباه مقرونين، مُفلج الأسنان بين كل سِنة وسنة فُرجة.

وكان عالمـــا بالسِـــيَّر والمغـــازى وأيام العـــرب وكان من أعلـــم الناس بالأنســـاب، داريا بأمور الطب، وكان يقـــول: لا أعلم علما بعد الحلال والحـــرام أنبل من الطـــب، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونـــا عليه. وكان يقول: ضيع المسلمون ثلث العلم «الطب» ووكلوه إلى اليهود والنصارى.

وقال: ثلاثة أشياء دواء من لا داء له وأعيت الأطباء مداواته: العنب، ولبن اللقاح، وقصب السكر.

ويقول أحد الأطباء: ورد الشـــافعى مصر فذاكرنى بالطب حتى ظننتُ أنه لا يحسن غيره!

ووهبـــه الله عـــز وجل نعمة فهـــم فقه الحديـــث ومعرفـــة الرجال، قال الربيـــع: كان أصحاب الحديث رقـــودا لا يعرفون مذاهب الحديث وتفسيره حتى جاء الشافعى.

* * *